البلاغة وتحليل الخطاب

مجلة فصلية علمية مُحكّمة

المدير المسؤول : ادريس جَبري

هيئة التحرير :

الحسين بنوهاشم — عبد الرحيم وهابي

عبد القادر بقشي — امحمد واحميد

هيئة التحكيم :

محمد العمري — محمود ميري

محمد الولي — حسان الباهي

سعيد بنكراد — محمد مشبال

سعيد يقطين — محمد الظريف

العدد : 9 - 2016

■ عنوان المجلة : ص. ب : 243 – بني ملال (23000) – المغرب.
■ الهاتف /والفاكس : 0523481666 / الهاتف النقال : 0668022157
■ الموقع الإلكتروني للمجلة : www.albalagha.net
■ البريد الإلكتروني للمجلة : – albalagha@albalagha.net
– jabridriss@albalagha.net
– Jabridriss@gmail.com

1- الدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة، والتي لم تنشر لا ترد إلى أصحابها.
2- يخضع ترتيب المقالات لاعتبارات تقنية فحسب.

طبع هذا العدد بدعم من وزارة الثقافة

■ **الإيداع القانوني رقم : 2012 PE 117**
■ **الملف الصحافي : 2012/09**
■ **ردمد : 2028-9456**
■ **طبع : مطبعة النجاح الجديدة (CTP) – الدار البيضاء.**
■ **توزيع : سابريس Sapress**
■ **غلاف من تصميم الفنان : عبد الله لغزار.**

النشر في المجلة

تنشر مجلة «البلاغة وتحليل الخطاب» جميع الدراسات والأبحاث النظرية والتطبيقية، الأصلية والمترجمة، الداخلة في مجال اختصاصها، المراعية لشروط البحث العلمي الأكاديمي.

ويشترط أن تكون مكتوبة باللغة العربية مستوفية لشروط البحث العلمي الأكاديمي، ولم يسبق نشرها.

ترتيبات النشر :

1- ترسل المشاركات العلمية إلى المجلة على بريدها الإليكتروني، مطبوعة على الوورد بحجم Simplified Arabic 14 في المتن، وبحجم 12 في الهامش والمراجع، وحجم 10 بالنسبة للغات الأجنبية.

2- يتراوح طول البحث أو الدراسة بين 3000 و4000 كلمة.

3- في حالة الترجمة يُرفق النص المترجم بالنص الأصلي.

4- توضع الإحالات في أسفل الصفحات : «جديد لكل صفحة»، مع الاقتصار على اسم المؤلف والمرجع والصفحة.

5- تثبت المصادر والمراجع والدوريات، باللغة العربية أو الأجنبية في آخر الدراسة، منفصلة عن الإحالات ؛ وذلك على الشكل الآتي : اسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، الطبعة، السنة ؛ وإذا كان مقالا، يوضع بين حاصرتين «...»، ويذكر العدد أو المجلد والسنة. ويراعى في إعداد كل ذلك الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

6- يبلغ أصحاب المساهمات بتسلم مشاركاتهم العلمية فور التوصل بها، على أن يتم إخبارهم بقبولها للنشر، بعد عرضها على محكمين، على نحو سري.

7- تطلب المجلة ـ في إطار التعاون العلمي ـ من صاحب البحث إجراء التعديلات الضرورية، عند الاقتضاء.

الفهرس

- **كلمة العدد** 9
- **كلمة عميد كلية الآداب، بني ملال** 13
- **كلمة مدير مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب** 15
- البلاغة العامة : النسق المصطلحي وخريطة النصوص
  محمد العمري 17
- مصطلح البيان العربي، السبيل إلى تحرير البلاغة العربية
  محمد الولي 33
- أسرار النظم في القرآن الكريم، انتظام للكائنات في الوجود
  مولاي ادريس ميموني 57
- أسئلة المنهج في دراسة المصطلح البلاغي العربي التراثي -قضايا ونماذج-
  محمد أزهري 73
- مصطلح البيان عند الجاحظ، مسار ومآل
  محمد بالاشهب 105
- أزمة المصطلح البلاغي العربي : مظاهر وأسباب ومقترحات
  عماد عبد اللطيف 117
- المصطلح الحجاجي بين الحد والتوليد، بحثٌ حفريٌّ في تحوّلات المؤسّسة الخطابيّة
  علي بن عبد العزيز الشبعان 131
- التجنيس بين المرجعية الدينية والتأسيس البلاغي
  محمد علي سلامة 149
- تطور المصطلحات البلاغية من القديم إلى الحديث، دراسة تاريخية تحليلية
  أحمد اسماعيل حسن 159

- المصطلح البلاغي بين ابن الأثير والبلاغيين
عبد الهادي تمورتاش وطه محمد عبد الفتاح جادو 173

- المصطلح البديعي عند الإمام البيضاوي
محمد حسن عطا المنان 187

- المقابلات المصطلحية بين الخلفية الفلسفية والتوظيف البلاغي، مصطلح الأليغوريا في مقابل مصطلحي الموناده والذرة في الخطابات الأدبية
هجر مدقن 205

- البلاغة والاجتهاد المصطلحي بين الوضع والإحياء دراسة لنماذج
امحمد واحميد 217

- المصطلح البلاغي عند الإشاريين، نماذج مبنية دالة
محمد زايد 233

- الإيجاز والإطناب والمساواة، مقاربة تداولية
حسن بدوح 249

- التصور الأرسطي للقول الخطابي، الضبط المفهومي والتدقيق المصطلحي
عبد الكريم ابزاري 261

- اشتغال المصطلح في نسق المشروع البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني
عبد الرحيم وهابي وعبد القادر بقشى 271

- تعقيب على ورقة «اشتغال المصطلح في نسق المشروع البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني» لوهابي وبقشى
الحبيب مغراوي 285

- المنظومة المصطلحية للبلاغة العامة
الحسين بنوهاشم 289

- تأطير وتعقيب على ورقة «المنظومة المصطلحية للبلاغة العامة» للحسين بنوهاشم
ادريس جبري 305

أزمة المصطلح البلاغي العربي
مظاهر وأسباب ومقترحات

د. عماد عبد اللطيف[1]

البلاغة علم موغل في القدم، وللتاريخ العريق أعباؤه ؛ إذ يبدو أن الاضطراب الاصطلاحي هو الوجه الآخر لعراقة العلوم الإنسانية. وقَدَرُ علم البلاغة أن يعاني من أزمة اصطلاحية تزداد مع تراكم القرون إثر القرون في عمره الطويل. يقدم هذا البحث إطلالة موجزة على أزمة المصطلح البلاغي العربي ؛ تتتبع مظاهرها، وتكشف عن بعض الأسباب التي أدت إليها، وتُقدم مقترحات تُسهم في تجاوزها.

يمكننا التمييز بين مرحلتين من مراحل أزمة المصطلح البلاغي. تقع المرحلة الأولى بين القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) إلى بدايات القرن العشرين. وهي المرحلة الممتدة منذ نشأة البلاغة العربية حتى بدء الاتصال الحديث مع البلاغة الغربية عبر الترجمة المباشرة. أما المرحلة الثانية فتمتد لقرن من الزمان تقريبًا، وتحديدًا منذ نشر أحمد ضيف المحاضرات التي ألقاها في الجامعة المصرية عام 1918 بعنوان «مقدمة لدراسة بلاغة العرب»[2]. ويرجع اختيار تلك الفترة إلى أنني أتعامل مع كتاب «مقدمة لدراسة بلاغة العرب» على أنه بداية أزمة المصطلح البلاغي الراهن. فربما كانت المحاضرات التي يتكون منها الكتاب أوّل محاضرات جامعية لأكاديمي عربي، تُعالج الأدب والبلاغة من منظور غربي، وهي تحوي آثارًا جلية للأزمة المصطلحية التي ستتجلى على مدار القرن العشرين بأشكال شتى. إن هذا الفصل بين المرحلتين يرجع، في تقديري، إلى أننا أمام أزمتين مختلفتين في مظاهرهما وأسبابهما، ومن ثمّ، في تصور إمكانيات معالجتهما. وسوف أُفصّل هذه الدعوى، مشخّصًا مظاهر الأزمة المصطلحية في كلٍّ منهما، وأسبابها، ومقدمًا مقترحًا عمليًا للتخلص من آثارها السلبية الممتدة حتى الآن.

---

(1) أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة قطر.

ويشكر المؤلف د. يوسف أبو عامر على تعليقاته القيمة على إحدى مسودات البحث.

(2) نُشر الكتاب عام 1921، ويمكن تحميل نسخة مصورة من الرابط الآتي : http://www.al-mostafa.info/data/arabic/depot3/gap.php?file=i003570.pdf

1- أزمة المصطلح البلاغي القديم : مظاهر وأسباب ومقترحات

1-1- مظاهر أزمة المصطلح البلاغي القديم

الاصطلاح -غالبًا- وليد الإدراك وبناء التصورات conceptualization. ربما تلخص هذه العبارة نشأة المصطلحات في المعارف والعلوم. ففي البدء تُدرك الظواهر والمفاهيم التي يُقدمها الواقع، ثم تُنشأ تصورات لها في الذهن، قد تُصاغ لغويًا في شكل تعريف، ثمّ تطلق عليها تسمية، وتتحول التسمية عبر الشيوع والاتفاق إلى مصطلح. ومن ثمّ، فإن الطبيعي أن يأتي فعل الاصطلاح عقب فعل الإدراك وبناء المفهوم. وهذا بالضبط ما عاينّته مصطلحات البلاغة العربية في معظمها ؛ ففي البدء كانت الظاهرة، ثم المفهوم، ثم كان المصطلح. وجسد تكتب معاني القرآن، إلى حد كبير، فترة تشكل المفاهيم، ونواة المصطلحات أيضًا. ثم اقترن تطور العلم بتطور قوائم مصطلحاته، حتى وصلنا إلى أدق صياغة لها في مفتاح العلوم وشروح التلخيص. غير أن المصطلح البلاغي التراثي عانى من أزمة ممتدة عبر تاريخه تجلت في ثلاثة أمور، سوف أعرضها، فيما يأتي، استنادًا إلى معطيات بحث سبق أن أنجزته حول اضطراب البنى الاصطلاحية في البلاغة العربية، تطبيقًا على الخطاب البلاغي القديم حول الالتفات[1].

أ- تعدد التسميات :

تشيع في التراث البلاغي ظاهرة تعدد الأسماء التي تحيل إلى ظاهرة واحدة ومفهوم واحد. فقد استعمل البلاغيون العرب، على سبيل المثال، اثنتي عشرة تسمية على الأقل للإشارة إلى مفهوم محدد هو «تحولات الضمائر بين الخطاب والغيبة والحضور مع ثبات مرجعها» ؛ هي : المجاز، والخروج على مقتضى الظاهر، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، وشجاعة العربية، والعدول، والالتفات، والصرف، وخطاب التلون، والانصراف، والتلوين، وتلوين الخطاب[2]. بالطبع فإن هذه التسميات تعكس مراحل متنوعة من الوعي بالظاهرة ؛ وتنتمي نشأة كلٍّ منها إلى سياق تاريخي وتأليفي محدد. وهو ما يدعمه أننا يمكن أن نرصد انتقالاً جليًا من إطلاق تسميات عامة على حزمة ظواهر متنوعة، تشترك في ملمح محدد (مثل العدول والمجاز)، إلى إفراد كل ظاهرة متمايزة بتسمية خاصة. ومع ذلك، فإن بعض هذه المصطلحات تزامن استعماله لسبب أو آخر. ففي أعمال القرن السابع الهجري وحده، استُعملت ست تسميات للإشارة إلى المفهوم هي «الالتفات، والانصراف، وشجاعة العربية، والتلوين، وتلوين الخطاب، والتوسعات»[3]. ويكشف تعدد التسميات التي تشير إلى مفهوم واحد عن اضطراب جلي في سياسات التراكم المعرفي،

(1) انظر، عبد اللطيف، عماد. تحليل الخطاب البلاغي. نشر كنوز المعرفة، الأردن، 2014، ص 13-88.
(2 نفسه، ص 63-71.
(3) نفسه، ص 68-69.

وفي الوعي بضرورة انضباط الاصطلاح العلمي ؛ خاصة أن معظم الكتابات التي استعملت تسميات مغايرة للمصطلح المشهور (شائع الاستعمال) في الفترة من القرن الخامس إلى الثامن الهجريين -أعني مصطلح الالتفات- لم تقدم مسوغات علمية لترك المصطلح المشهور إلى تسمية أخرى جديدة أو مهجورة. وهو ما يمثل -في رأيي- علامة على وجود حركات ارتدادية في مسار المعرفة البلاغية.

ب- تعدد المفاهيم التي يُشير إليها مصطلح واحد :

سوف أضرب مثالا على هذا المظهر الجلي من مظاهر اضطراب البنى الاصطلاحية بمصطلح «الالتفات». فهذا المصطلح نعتقد أن أول استعمال وصلنا له ورد في كتاب «البديع» لابن المعتز. ومنذ ذلك الحين استُعمِل للإشارة إلى ثلاثة عشر مفهومًا وظاهرة متباينة[1]. فقد تتسع حدود مفهوم المصطلح إلى حد شموله كل صور التحول من أسلوب إلى آخر في اللغة. وقد تضيق لتقتصر على مجرد التحول من ضمائر الغيبة إلى الخطاب. إن استعمال مصطلح واحد للدلالة على مفاهيم تربط بينها صلة ما يُعدُّ وجهًا من وجوه أزمة المصطلح البلاغي، أما استعمال مصطلح واحد للدلالة على مفاهيم شديدة التباين فهو التجلي الأكثر وضوحًا لهذه الأزمة.

ت- وجود مفاهيم بلا مصطلحات دقيقة :

يتفاوت الاهتمام العلمي بالظواهر المدروسة في حقل معرفي ما. ويبدو هذا أمرًا طبيعيًا في ضوء إدراك الدارسين لدرجة انتشار الظاهرة، وتأثيرها، وأهمية دراستها. ومع ذلك، فإنه يصعب تبرير تفاوت الاهتمام الأكاديمي بأسباب موضوعية في بعض الأحيان، خاصة ما يتعلق بعملية الاصطلاح. ففي حين تحظى بعض الظواهر بعشرات التسميات، نجد أن ظواهر أخرى لا تقل انتشارًا وتأثيرًا وأهمية يكاد لا يُصطلَح عليها. وعلى سبيل المثال، لم تلق ظواهر مثل التحول بين الأزمنة والنوع والعدد من اهتمام البلاغيين ما لقيته ظاهرة التحول بين الضمائر، إلى حدّ تكاد تغيب معه المصطلحات الدقيقة الدالة عليها.

2-1- أسباب أزمة المصطلح البلاغي القديم

يمكن تلخيص العوامل المؤثرة في أزمة المصطلح البلاغي القديم فيما يأتي :

1- أثر المدونة البلاغية: المصطلح وقداسة النص القرآني :

تتعدد أبعاد التأثير المحوري للقرآن الكريم في نشأة البلاغة العربية وتطورها. إذ يُمكن تلمس جذور البلاغة العربية في كتب معاني القرآن. كما أن إحدى أدق النظريات البلاغية العربية

(1) نفسه، ص 53.

وأشملها -نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني- تأطرت استنادًا إلى تحليل النص القرآني بالأساس. وبالمثل، فإن بعض أفضل معالجات التحليل البلاغي يمكن أن نجدها في تفاسير مثل الكشاف للزمخشري. ومع ذلك، فقد كانت حساسية بعض العلماء في معالجة النص المقدس سببًا في بعض وجوه أزمة المصطلح البلاغي القديم. فعلى سبيل المثال، أطلق البلاغيون العرب على تشابه آخر حرف في الجمل المتعاقبة في النص السردي تسمية «السجع»، لكنهم أطلقوا على الظاهرة نفسها في القرآن الكريم اسم «الفاصلة»، هربًا من استدعاء أي تشابه بين نص القرآن الكريم والنصوص الدينية الأخرى المتداولة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وبخاصة سجع الكهان. وبذلك تتضمن كتب البلاغة مصطلحين متباينين للإشارة إلى ظاهرة واحدة. ويبدو ذلك نزوعًا نحو استقلال بلاغة النص القرآني بقائمة مصطلحات خاصة. وهو نزوع نرى تجلياته في مصطلحات أخرى، كما هي الحال في مصطلح الالتفات، الذي عارض بعض البلاغيين استعماله، استنادًا إلى أن الالتفات (بوصفه حركة، ومصطلحًا بلاغيًا) «لا يُستعمل في الله عز وجل»[1]، والأمثلة كثيرة على هذا. وقد كانت حساسية استعمال المصطلحات العلمية في وصف لغة القرآن الكريم مؤثرة إلى حدٍّ أنّ كتبًا عدّة في علوم معاني القرآن وتفسيره وإعجازه نزعت نحو تجنب تسمية بعض الظواهر، كما هي الحال في ظاهرة التحولات بين الضمائر مع ثبات المرجع[2].

2- اضطراب الوعي بالأبعاد المعرفية لعملية الاصطلاح :

الاصطلاح عملية معرفية معقدة، تتطلب وعيًا بطبيعة العلاقة بين المصطلح والظاهرة والمفهوم والتعريف. وقد ترك بلاغيونا القدماء قائمة من أكثر قوائم المصطلحات العلمية دقة وانضباطًا. ومع ذلك، توجد بعض الحالات التي تكشف عن هشاشة إدراك طبيعة هذه العلاقات، والوعي بحدودها، في بعض الأحيان. وذلك مثل الاحتكام في التحديد المفهومي للمصطلح إلى دلالته اللغوية، وهو ما يتجلى في توظيف الدلالة اللغوية للفظ في تحديد المفهوم. وعلى الرغم من أن واضع المصطلح يختار بالأساس اللفظ الأكثر دقة في الدلالة على أصل الظاهرة المسمَّاة، فإن العلاقة بين المصطلح والمفهوم هي علاقة شبه اعتباطية ؛ إذ يكتسب المصطلح قوته من تعارف المستخدمين على دلالته. وبناءً على ذلك، فإن توظيف المعنى المعجمي للمصطلح في تحديد المفهوم قد يكون مربكًا أو مضللا. وينطبق هذا الحكم أيضًا على الربط بين العناصر الجزئية للدلالة المعجمية للفظ والعناصر الجزئية للمفهوم. لكن أكثر آثار عدم الوعي بالطبيعة المعرفية لعملية الاصطلاح جلاءً هواستعمال مرادف لغوي لمصطلح ما ليحل محل المصطلح الأصلي، مثلما نجد، على سبيل المثال، في استعمال مصطلحي (الانصراف، والصرف) على سبيل التبادل مع مصطلح (الالتفات).

(1) نفسه، ص 24، والاقتباس منقول عن «المعيار في نقد الأشعار»، لجمال الدين الأندلسي، تحقيق عبد الله محمد سليمان هنداوي، مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1987، ص 166.

(2) انظر، تحليل الخطاب البلاغي، مرجع سابق، ص 20-21.

3- امتداد الإسهام البلاغي العربي عبر حقول معرفية، وحقب زمنية، وبيئات جغرافية شاسعة :

تشتمل الجذور المعرفية لعلم البلاغة على إسهامات مهمة من حقل شروح الشعر ونقده، ومعاني القرآن وتفسيره وإعجازه، وعلوم اللغة، والبلاغة العامة، وغيرها. يستقل كل حقل من هذه الحقول بقائمة مصطلحاته وظواهره. وقد رصدتُ في دراسة سابقة تأثير تعدد الحقول المعرفية الرافدة للبلاغة في تعميق أزمة المصطلح البلاغي، وضربت أمثلة محدودة لتباين المصطلحات التي تشير إلى ظاهرة محددة بسبب اختلاف الحقل المعرفي الذي نشأت فيه[1].

وعلى نحو مماثل، فإن الإسهامات العربية في علم البلاغة استمرت ثرية عبر مئات السنين، وقد أشرتُ في مفتتح البحث إلى ضريبة العراقة التي تدفعها بعض العلوم. ولا أعدُّ التغيرات المصطلحية الناتجة عن تطور العلم سببًا من أسباب أزمة المصطلح البلاغي. فهذه طبيعة الأمور، بل ما يجب أن تكون عليه. لكن ما يزيد المصطلح البلاغي تأزما إنما هو عدم الوعي بأن بعض التغيرات المصطلحية إنما هي نتاجٌ واضحٌ لتطور العلم. ومن ثمَّ، فإنَّ المصطلحات القديمة قد تُعبر عن مرحلة ما قبل نضج العلم، وبالتالي يتعين الحذر في استعمالها. وعلى سبيل المثال، فإن استعمال المصطلحات العامة التي تُحيل إلى مدى واسع من المفاهيم، مثل مصطلح المجاز عند أبي عبيدة، ومصطلح البديع عند ابن المعتز، يجب أن يدعمه إدراك صارم بأن دلالة هذه المصطلحات قد تغيّر جذريًا، باتجاه مزيد من تخصيص الدلالة وتدقيقها. ومن ثمّ، فإن كل استعمال عليه أن يبدأ من آخر نقطة أصيلة في تاريخ المصطلح، حتى ينجو من الاضطراب، ويُنجز أهم سمة للعلم وهي سمة «التراكمية».

3-1- المقترحات : في ضرورة إنشاء معجم تاريخي لمصطلحات البلاغة العربية

لقد انتقل الاضطراب الاصطلاحي المتفشي في التراث البلاغي إلى الدراسات الحديثة التي انشغلت بهذا التراث درسًا وتدريسًا. فرأينا تباينات كبيرة في تعريف المصطلحات، وتعارضًا جليًا بين الظواهر التي تندرج في إطار كل مصطلح. وغيابًا لحدود العلاقة بين المصطلحات المتقاربة، وغيرها من مظاهر أزمة المصطلح التراثي. ومرة أخرى قد يكون من المفيد الإحالة إلى مثال دال، وهو التباين الهائل في التصور المفهومي للبلاغيين العرب لمصطلح الالتفات، والذي يقصره بعضهم على تحولات الضمائر، في حين يستعمله آخرون مرادفًا لمصطلح العدول على اتساعه ! وبالطبع فإن هذه التصورات المفهومية المتباينة للمصطلح تجد أرضية تراثية ما تستند إليها.

إن استعمال نصوص التراث القديم أداةً لإضفاء الشرعية على تصورات مفهومية حديثة ومتباينة لمصطلح ما هو أمر مشروع. لكن من الضروري الوعي بأن البلاغة القديمة تحوي تنوعات

(1) نفسه، ص 25-27.

هائلة، بحكم ثراء روافدها، وامتدادها الطويل عبر الزمن، وتطورها من الجنينية والمهد إلى الاستواء والنضج المعرفي. ومن ثمّ، فإن الاستناد إلى نص ما يستلزم الوعي بموقع هذا النص من مدونة التراث البلاغي كلها. وهنا تظهر الحاجة الملحة إلى إنشاء معجم تاريخي لمصطلحات البلاغة العربية. مثل هذا المعجم سوف يتيح رسم خرائط عدّة لتطور دلالات المصطلحات، وصياغات المفاهيم، وعملية الاصطلاح برمتها.

لقد اقترحتُ في عمل سابق إجراءات محددة لإنشاء معجم تاريخي للمصطلح البلاغي التراثي، تستهدف تتبع تطورات العلاقة بين المفاهيم والمصطلحات عبر الزمن، مستفيدًا من بعض الإسهامات النظرية في المصطلحية وعلم المصطلح، هي تحديدًا (1) تثبيت مصطلح ما، ورصد ما يتعاوره من مفاهيم عبر التاريخ ؛ (2) تثبيت مفهوم ما، ورصد المصطلحات التي تحيل إليه ؛ (3) تحليل المفاهيم البلاغية إلى عناصرها الأساسية ؛ وأخيرًا (4) استكشاف الروابط التاريخية بين المصطلحات والمفاهيم المختلفة[1]. بالطبع، يحتاج هذا العمل إلى تكاثف عدد من البلاغيين، ويمكن الإفادة إلى حد كبير من الأعمال الأكاديمية الثرية التي استهدفت ضبط المصطلحات والمفاهيم البلاغية.

إن نظرة مدققة إلى المعاجم البلاغية العربية المتاحة في الوقت الراهن تجعلنا أكثر اقتناعًا بالضرورة الملحة لإنشاء مثل هذا المعجم التاريخي[2]. فالمعاجم القليلة الراهنة تكاد تشبه صناديق المقتطفات البلاغية، حيث تتجاور الاستشهادات المتوالية حول مصطلح أو ظاهرة ما دون فحص للعلاقات الدقيقة بينها، ورصد حركة تغيرها عبر التاريخ. وفي الحقيقة، فإنني أظن أن الانتشار المحدود لهذه المعاجم البلاغية، وضعف اعتماد الباحثين البلاغيين عليها هو تعبير غير مباشر عن محدودية ما تقدمه للمهتمين. لكن معجمًا تاريخيًا دقيقًا للبلاغة العربية سيكون، في ظني، مرجعًا لا غنى عنه للباحثين فيها.

2- أزمة المصطلح البلاغي المعاصر : مظاهر وأسباب ومقترحات

ليست أزمة المصطلح البلاغي العربي المعاصر مجرد امتداد لأزمتها في التراث العربي. هناك، بالطبع، اضطراب في بعض البنى الاصطلاحية في البلاغة العربية. لكن ثمّة عاملاً آخر ترك تأثيرًا لا يقل تغلغلاً هو اتصال البلاغة العربية بالغربية عبر الترجمة، وتزايد التلاقح بينهما على نحو غير مسبوق. وسوف أخصص هذا القسم من بحثي لدراسة مظاهر أزمة المصطلح المترجم، وأسبابها، ومقترحات معالجتها.

(1) انظر، تحليل الخطاب البلاغي، مرجع سابق، ص 44-46.

(2) أشهر هذه المعاجم البلاغية : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، نشر مكتبة لبنان، بيروت ط 1996. ومعجم البلاغة العربية، بدوي طبانة. نشر دار المنارة (جدة)، ودار الرفاعي (الرياض) ط. 3، 1988م، والمعجم المفصل في علوم البلاغة، إنعام فوال عكاوي. دار الكتب العلمية، ط. 2، 1996م.

ربما يرجع أول احتكاك بين البلاغتين العربية واليونانية في العصر الحديث إلى ترجمة رفاعة الطهطاوي وتلاميذه لكتاب «بداية القدماء وهداية الحكماء» عام 1838[1] ؛ إذ يتناول الكتاب جزءًا من التاريخ الأدبي لليونان القديمة، بما يتضمنه من إشارات إلى بعض المصطلحات الأدبية اليونانية الأجنبية، غير أنني سأقفز على نحو 70 عامًا من الزمن لأتوقف أمام كتاب باحث آخر، هو الدكتور أحمد ضيف. يرجع اختياري لهذا الكتاب، في صدر تحليلي لأزمة المصطلح البلاغي الحديث، إلى أنه أول كتاب يحمل على نحو صريح اسم «بلاغة العرب»، وتتجسد فيه جُملة من المشكلات التي تُعد مظاهر لأزمة المصطلح البلاغي الحديث. وسوف أتخذ من الكتاب أمثلة للتدليل على هذه المظاهر التي ألخصها فيما يأتي :

2-1- مظاهر أزمة المصطلح البلاغي المعاصر

أ- الاتكاء على مدونة المصطلح العربي التراثي في ترجمة المصطلح البلاغي الغربي.

استعمل المترجمون العرب، في بدايات القرن العشرين، مصطلح تعريب، للدلالة على عملية نقل النصوص من لغة أخرى إلى العربية. وعلى الرغم من أن البعض يستعمل مصطلحات مثل «ترجمة»، و«نقل»، و«تعريب» على سبيل الترادف، فإنني أظن أن استعمال مصطلح تعريب، ربما كان ينطوي على إيحاء بأن فعل الترجمة يتجاوز نقل النص الأجنبي إلى توطينه في بيئته الجديدة. كان لهذا الفهم تأثيرات عدّة ؛ لعل أهمها تغيير أسماء الشخصيات في بعض الأعمال السردية، والتداخل في بعض الأحيان بين النص الأصلي، وتعليقات مترجمه. والأهم -فيما يخص موضوع بحثي- هو استعمال المصطلحات العلمية القديمة بوصفها مقابلات لمصطلحات جديدة. يبدو هذا الاختيار طبيعيًا ؛ لأنه يقوم على استكشاف آلية المشابهة بين المصطلحات. لكن ثمة اختيارًا آخر -ظل هامشيًا- هو الإبقاء على المصطلحات الأجنبية، وإخضاعها فقط للسنن الصوتي العربي، مثلما حدث مثلا مع مصطلحات الرومانطيقية، والكلاسيكية، وغيرها.

أدت عمليات تعريب المصطلح الأجنبي إلى بزوغ أزمة مصطلحية جديدة ؛ فالمصطلحات البلاغية الغربية تنتمي إلى سياقات، وتحيل إلى ظواهر، قد تختلف بدرجة أو أخرى عن تلك العربية. ويتعزز هذا بفضل التباين الجلي بين بنية اللغة العربية وبنية اللغات الأوروبية المترجم عنها (وبخاصة الفرنسية والألمانية والإنجليزية). ومن الطبيعي أن بلاغات الأمم تتباين توصيفاتها للظواهر بحسب طبيعة لغاتها. وعلى سبيل المثال، فإن العرب أفردوا بابًا كبير للتقديم والتأخير، وهو باب ليس من المتوقع أن نجد مثيلا له في اللغة الإنجليزية مثلا، التي تُعد الجملة فيها ذات بنية مقيّدة إلى حد كبير قياسًا إلى البنية الحرة للجملة العربية.

(1) نُشر الكتاب في دار الطباعة العامرة ببولاق.

يقدم لنا كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب أمثلة صارخة على هذا التجلي من تجليات أزمة المصطلح البلاغي. فالكتاب، الذي يحمل عنوان «البلاغة»، ليس كتابًا في البلاغة. والمصطلح القديم، الذي استُحضر في عنوان الكتاب ومتنه، يشير إلى مفهوم آخر مختلف تمامًا، هو مفهوم «الأدب». والمؤلف نفسه يُدرك هذا التضارب المفاهيمي، ويصرّح في هامش كتابه بوضوح «نريد بالبلاغة ما يطلق الناس عليه الآن اسم «أدب»، وهو أثر العقول والأفكار الذي يظهر في الشعر والنثر» (ص 12، هامش 1). والسؤال هو : لماذا لم يستعمل المؤلف اسم «الأدب»، الذي يشتهر بين الناس، وآثر استعمال اسم «البلاغة»، الذي أحوجه غموض دلالته إلى كتابة هذا الهامش ؟ وتبقى الإجابة في بطن المؤلف، الذي لم يعلل لنا سبب الاختيار، بل تركنا نتخبط على مدار الكتاب، بسبب التصادم الفادح بين دلالة المفهومين. ومن ثمَّ، غدت عملية قراءة الكتاب مربكة، والإفادة منه شبه متعذرة ؛ لأن القارئ لا ينى يسأل نفسه : عن أي بلاغة هذا الكتاب يتحدث ؟ وحتى حين يقرر القارئ أن يلصق تسمية «الأدب»، فوق كلمة «البلاغة» ؛ حتى يتفادى قلق الإبهام، ويتعامل معهما على أنهما مترادفان، يُفاجأ في ثنايا الكتاب أن المؤلف يعطف بينهما عطف المتغايرين[1]. ولن نمكث طويلا حتى يستعمل المؤلف تسمية البلاغة بمفهومها العربي التقليدي[2]، فتعود لتصبح هي بلاغة علوم المعاني والبيان والبديع !

إن الاضطراب الاصطلاحي الناتج عن ضعف التمييز بين مفاهيم البلاغة الغربية الحديثة ومفاهيم المصطلح البلاغي العربي القديم، كما يتجلى في كتاب «مقدمة لدراسة بلاغة العرب»، يشيع في كثير من الكتابات العربية. ولعل بعض باحثينا يتصدون لدراسة هذه المسألة على نطاق واسع. ومع ذلك، فإن مخاطر هذه المظهر من مظاهر الاضطراب الاصطلاحي أقل من مظهرٍ آخر أكثر انتشارًا وتغلغلاً في الوقت الراهن، هو تعدد مقابلات المصطلح الواحد.

2- تعدد المقابلات العربية للمصطلح الواحد

هذا هو التجلي الأبرز لأزمة المصطلح البلاغي المعاصر. فالمقابلات العربية تتعدد على نحو لافت. ولعلنا نجد الأمثلة الأكثر جلاء في الترجمات المتعددة لكتاب واحد. ومن الشيق قراءة مسارد مصطلحات الكتب التي تتصدى لترجمة النص نفسه، وملاحظة كيف يجتهد اللاحق في ابتكار قائمة مصطلحات مغايرة لما استعمله السابق. وكأن الاتفاق على المصطلح المعروف أو المشهور أو سابق الاستعمال أمر معيب. إن عملية الاصطلاح هي وجه من وجوه تأسيس التوافق، وربما كان استعمال مصطلح شائع واحد، حتى وإن لم يكن أحسن الاختيارات قاطبة، أفضل من استعمال أكثر من مصطلح ؛ فالتوافق هو جوهر الاصطلاح. وأظن أن تأسيس هذا التوافق هو الغاية الأساسية لكل الجهد العملي المبذول لمعالجة قضية المصطلح البلاغي العربي.

(1) ضيف، أحمد. مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ص 82.

(2) نفسه، ص 166.

ولن يتأتى ذلك إلا بوجود معاجم متخصصة دقيقة وشاملة ؛ تجمع ما استقر من مصطلحات العلوم، وتؤسس لمصطلحات يرجى لها الاستقرار.

2-2- أسباب أزمة المصطلح البلاغي المعاصر

1- تعدد دلالة المصطلح في الثقافة الأصلية :

تَعدُّدُ المفاهيم التي قد يحيل إليها مصطلح بلاغي مشكل اصطلاحي لا تختص به البلاغة العربية. وإنما يمكن العثور على حالات عديدة مشابهة في البلاغة الغربية، كما يتجلى مثلا في كلمة Speech، التي تعني خطبة أو كلمات أو نطق وغيرها. بالطبع، فإن ترجمة مصطلح متعدد المفهوم في لغته الأصلية قد يكون مربكًا، خاصة إذا كانت هذه المفاهيم نتاج تطور معرفي عبر الزمن، أو نتاج اختلاف مذهبي أو منهجي.

يمكن أن نضرب مثالا على هذا التعدد بمصطلح جذري في البلاغتين القديمة والمعاصرة معاً ؛ هو مصطلح metaphor. ففي البلاغة العربية، نميز بين التشبيه والاستعارة، فهما بابان مستقلان، لا يكاد الدارس المبتدئ في البلاغة أن يخلط بينهما. والتمييز بين metaphor وsimile في البلاغة الغربية القديمة كان يحظى بدرجة مماثلة من القبول. لكن نظرية الاستعارات المفهومية سوف تُلغي هذا التمييز، لتندرج كل أنواع التشبيه في مفهوم واسع للاستعارة. وهكذا، فإن تشبيهات بليغة مثل «الجدال حرب»، و«الوقت نقود»، و«النظريات أبنية»، سوف يُتعامل معها بوصفها metaphor، بالمفهوم الواسع للكلمة. وحين يترجم الباحثون العرب مصطلح metaphor الوارد في نظرية الاستعارات المفهومية فإنهم يستعملون -مثلما فعلتُ تمامًا في جملتين سابقتين ضمن هذه الفقرة- مصطلح «استعارة»، رغم أنه يدرك تمامًا أن بعض الأمثلة التي سوف يوردها تنتمي إلى مقولة مستقلة لديه هي «التشبيه». وقد يلجأ آخرون إلى استعمال مصطلح أعم هو «المجاز» ؛ للخروج من هذا المأزق. فيكونون أشبه بالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ إذ إن مصطلح «المجاز» بدوره، ليست دلالته أقل إثارة للتساؤلات من مصطلح «الاستعارة». فمصطلح «مجاز» قد يُستعمل للإشارة إلى نوع محدد من الاستعمال غير الحقيقي للغة، وهو المجاز المرسل. كما أن المفاهيم الأولى للمجاز (كما عند أبي عبيدة في كتابه الشهير «مجاز القرآن»)، شديدة الاتساع ؛ إذ تكاد تشمل كل صور العدول عن النسق اللغوي والثقافي.

2- أثر تباين البيئات الأكاديمية في العالم العربي

إن أحد الأسباب المؤثرة في أزمة المصطلح البلاغي الراهن هو تعدد البيئات الثقافية العربية وتباينها. للوهلة الأولى، فإن هذا التعدد والتباين يُدرك على أنه مصدر قوة وثراء ؛ لما يُتيحه من إمكانيات التكامل والتساند، وهذا واقع فعلي. لكنه، في بعض الأحيان، يضيف إلى واقع

المصطلح البلاغي مزيدًا من التعقيدات، خاصة حين تنحاز البيئات الأكاديمية إلى مبدأ الاستقلال بالمصطلح على حساب مبدأ التشارك فيه ؛ أو بالأحرى إلى فعل التسمية على حساب مبدأ الاصطلاح. هذا الانحياز لنزوع التمايز ضد ضوابط الاتفاق، يؤثر بشدة في واقع المصطلح العلمي العربي عمومًا، والعلوم الإنسانية على وجه الخصوص. ويكفي أن نضرب مثالا بأسماء علوم بأسرها، تتباين مقابلاتها العربية على أساس جغرافي، على نحو ما نرى في مصطلح linguistics، الذي يُترجم في مصر إلى علم اللغة، وفي سوريا ولبنان إلى الألسنية، وفي دول المغرب العربي إلى اللسانيات !

على الرغم مما سبق، فإنني أظن أن التأثير السلبي لتعدد البيئات الأكاديمية يمكن التقليل منه إلى حد بعيد ؛ فهناك الآن مساحات أوسع من التواصل والتعاون الأكاديمي عبر العالم العربي. إضافة إلى ذلك، فإن الأفق مهيأ لإنجاز عمل عربي مشترك للتوحيد المصطلحي. يأخذ على عاتقه إنجاز قاموس بلاغي معاصر، ربما يمثل خطوة ضرورية نحو تقليل الآثار السلبية لأزمة المصطلح البلاغي. وسوف أعرض خطة موجزة له فيما يأتي :

2-3- المقترحات : نحو معجم عربي موحد للمصطلح البلاغي المعاصر

يوجد حاليًا عدد من المعاجم العربية في المصطلح النقدي والأدبي الحديث[1]. وتتضمن هذه المعاجم غالبًا كثيرًا من المصطلحات البلاغية. ومع ذلك، فإن المعاجم المختصة بالمصطلح البلاغي الحديث محدودة إلى درجة الندرة. وفي الحقيقة، فإن المعجم الوحيد الذي توصلت به هو «قاموس الأسلوبيات والبلاغة»، للدكتور حسن سعيد غزالة، (مالطا، 2000) وهو قاموس ثنائي اللغة (إنجليزي-عربي، وعربي-إنجليزي)، يتضمن عددًا وافرًا من المصطلحات البلاغية والأسلوبية خصوصًا، واللسانية والنقدية عمومًا. وهو يكتفي بذكر مقابل (أو مقابلات) المصطلح، دون تعريف. وفي الحقيقة فإن التوفيق قد جانب مؤلّف القاموس في كثير من المقابلات التي وضعها للمصطلحات. وعلى الرغم من أنه يميل إلى تعدد المقابلات للمصطلح الواحد، فإن اختياراته تخلو كثيرًا من المقابل الأدق والأصح. ويطرد هذا الحكم على كمٍّ كبير من المصطلحات الواردة فيه، لكنني سأمثل بمصطلحين فقط، وردا في صفحة واحدة من الكتاب.

أورد المؤلف سبع ترجمات لمصطلح allegory هي : «(1) مجاز ؛ (2) رمزية ؛ (3) معنى ضمني ؛ (4) استعارة متمددة ؛ (5) لبس ؛ (6) قصة رمزية ؛ قصص رمزي»[2]. والملاحظ أن

(1) من هذه المعاجم : معجم مصطلحات الأدب، تأليف مجدي وهبة ؛ والمصطلحات الأدبية الحديثة، تأليف محمد عناني؛ والمعجم الأدبي، تأليف جبور عبد النور، ومعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، تأليف سعيد علوش، ودليل الناقد الأدبي، تأليف ميجان الرويلي وسعد البازعي، وغيرها. لعرض نقدي وافٍ لهذه المعاجم، وغيرها، يمكن الرجوع إلى الأطروحة القيمة للأستاذ محمد خطابي بعنوان «المعجمات الأدبية العربية الحديثة (1974-1996) : دراسة تحليلية نقدية للمصطلح والمفهوم».

(1) غزالة، حسن سعيد. قاموس الأسلوبيات والبلاغة. إيليجا للنشر، مالطا، 2000، ص 3.

الهوة بين هذه المقابلات شاسعة، شسوع الفرق بين المجاز واللبس ! لكن الأكثر إثارة للتساؤل هو أن قائمة المقابلات السبعة تخلو من المصطلح الأدق في ترجمة allergory ؛ أعني «أمثولة». ومن الواضح أن المؤلّف يحشر المقابلات حشرًا دون مسوغ واضح، وآية ذلك أن مصطلحات «المجاز»، و«الرمزية» و«الاستعارة المتمددة»، و«المعنى الضمني»، لها مقابلات إنجليزية محددة هي على التتابع "trope"،"symbolism" ، "extended metaphor" ، "implied meaning" . وأظـن أن المؤلف لم يرجع إلى المفاهيم الاصطلاحية لهذه المصطلحات، وإلا لتردد قبل أن يحشرها على هذا النحو غير المبرر. أما المصطلح الثاني فهو مصطلح amplification، الذي أورد له المؤلف سبعة مقابلات أيضًا ؛ هي : «(1) توسيع ؛ (2) تضخيم ؛ (3) تشعيب ؛ (4) تفخيم ؛ (5) إفاضة ؛ (6) أسلوب تفريع الموضوع ؛ (7) أسلوب استعمال الأمثلة والمترادفات»[1]. هذه القائمة تولد شعورًا بالدهشة ؛ لأنها تخلو من المقابلين الأشهر والأدق، وهما «الإطناب»، و«الإسهاب». في حين أن ما أورده المؤلف لا يعدو أن يكون مقابلات للمعنى المعجمي للمصطلح، وليس المعنى الاصطلاحي. إضافة إلى أن بعض المقابلات تأتي في أربع كلمات وثلاث كلمات، وهو انتهاك صارخ لمبدأ الاقتصاد اللغوي في صياغة المصطلح، ويكشف في الحقيقة عن غياب التمييز بين المصطلح والتعريف. وعلى أية حال، فإن القاموس ينطوي على مشكلات مصطلحية أخرى أعمق ربما يأتي مجال ذكرها في سياق آخر. فما يهمنا في هذا السياق هو الوصول إلى نتيجة مؤداها أن الضرورة ملحة لإنجاز معجم للمصطلحات البلاغية المعاصرة، يتسم بالشمول والدقة، ويسد الفجوة الكبيرة في المعاجم الراهنة. وأقترح أن يتصف المعجم المأمول بما يأتي :

1- أن يكون ثلاثي اللغة (عربي-إنجليزي-فرنسي) ؛ حتى يشمل الخلفيات المرجعية الرئيسة في العالم العربي؛

2- أن يكون معجمًا شارحًا، لا يكتفي بذكر مقابلات المصطلح، وإنما يتجاوز ذلك إلى تعريفها والتمثيل لها ؛

3- أن يكون تأليفه ذا منهجية تاريخية، تتوالى فيه التعريفات بحسب تطورها ؛

4- أن يُمثّل في تأليفه باحثون من بيئات أكاديمية متعددة على اتساع العالم العربي ؛ ليضبط التنوع المصطلحي المستند إلى التباين الجغرافي ؛

5- أن يشارك في تأليفه باحثون من التخصصات ذات الصلة المباشرة بعلم البلاغة ؛ وهي اللسانيات والفلسفة والنقد ؛ لكي تُضبط المصطلحات الجمّة الواردة من هذه الحقول.

(1) نفسه، ص 3.

خاتمة : مصطلحات بلاغة المستقبل

يبدو علم البلاغة أحد أكثر العلوم ازدهارًا في الوقت الراهن ؛ فهناك طفرة في أعداد الباحثين المشتغلين به، وفي البحوث التي تنتمي إليه. كما يتزايد تغلغله في عدد وافر من الحقول المعرفية غير التقليدية، مثل علوم السياسة والاجتماع والنفس والتاريخ.. إلخ. وتتزايد تقاطعاته مع حقول أخرى عديدة. ومن المتوقع أن تشهد السنوات المقبلة، نتيجة لذلك، طفرة موازية في المصطلح البلاغي. وأظن أننا بحاجة إلى بلورة خطة مستقبلية تسهم في تحقيق أقصى فائدة للعلم من هذه الطفرة المرجوة. ولعل الخطوة الأولى تكون تعزيز التعاون العربي الجماعي ؛ لأجل الوصول إلى مقابلات موحدة مستقرة للمصطلحات الجديدة، وإنجاز معاجم للمصطلحات البلاغية القديمة والمعاصرة./.

المراجع

1- الأندلسي (جمال الدين) : «المعيار في نقد الأشعار»، تحقيق عبد الله محمد سليمان هنداوي، مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1987.

2- عماد (عبد اللطيف) : تحليل الخطاب البلاغي. نشر كنوز المعرفة، الأردن، ط 1، 2014.

3- طبانة (بدوي) : معجم البلاغة العربية، نشر دار المنارة (جدة)، ودار الرفاعى (الرياض) ط 3، 1988م.

4- اليازغي (سعيد) الرويلي (ميجان) : دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، بيروت، ط 3، 2002.

5- عكاوي (إنعام فوال) : المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط 2، 1996م.

6- علوش (سعيد) : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (عرض وتقديم وترجمة) دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، البيضاء، ط 1، 1985.

7- ضيف (أحمد) : مقدمة لدراسة بلاغة العرب. مطبعة السفور، القاهرة، 1912.

8- غزالة (حسن سعيد) : الأسلوبيات والبلاغة. إيليجا للنشر، مالطا، 2000.